(١)

الدفاع عن الدولة والوطن وحماية دور العبادة
في سيرة النبي (صلى الله عليه وسلم)

الحمد لله رب العالمين، القائل في كتابه العزيز : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ}، وأَشهدُ أنْ لاَ إلهَ إلاَّ اللهُ وحدَهُ لا شَريكَ لَهُ ، وأَشهدُ أنَّ سيِّدَنا ونبيَّنا محمدًا عَبدُه ورسولُهُ ، اللَّهُمَّ صَلِّ وسلِّمْ وبارِكْ علَيه وعلَى آلِهِ وصحبِهِ، ومَنْ تَبِعَهُمْ بإحسانٍ إلَى يومِ الدِّينِ.

وبعـــد :

ففي ذكرى مولد النبي (صلى الله عليه وسلم) تناولنا في الجمعتين الماضيتين الرحمة والإنسانية في حياته (صلى الله عليه وسلم)، وسيرته العطرة ، واليوم نتناول جانبًا لا يقل أهمية عن الجانبين السابقين ، بل إنه ينطلق منهما ، فمن الرحمة والإنسانية أن نحمي وطننا ، وأن ندافع عنه ، وأن نحمي أنفسنا وشبابنا ونساءنا ، وأطفالنا ، ودور عبادتنا.

ومما لا شك فيه أن للوطن قيمة ومكانة سامية ، فحبّه والانتماء إليه فطرةٌ جُبلت عليها النفس البشرية ، وهو واجب تفرضه الوطنية ، ويؤصله الشرع الحنيف ، وأكدت عليه جميع الشرائع السماوية ، ولقد ضرب النبي (صلى الله عليه وسلم) أعظم الأمثلة في حب الوطن ، وجسَّد ذلك في موقف رائع يُعلي من قيمة الوطن ، ويرغب في الانتماء إليه ، حيث قَالَ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) عند هجرته مخاطبا مَكَّةَ : (مَا أَطْيَبَكِ مِنْ بَلْدَةٍ وَأَحَبَّكِ إِلَيَّ ، وَلَوْلَا أَنَّ قَوْمَكِ أَخْرَجُونِي مَا خَرَجتُ) ، وعندما هاجر (صلى الله عليه وسلم) إِلى المَدِينَةِ المنورة ، واستوطن بها ، دعا الله (عزّ وجلّ) أَنْ يُحبِّبَ إِلَيْهِ وَطَنَهُ الثَّانِي ، وأن يحقق له فيه الأمن والاستقرار ، فقال (صلى الله عليه وسلم) :

(اللهُمَّ حَبِّبْ إِلَينَا المَدِينَةَ ، كَحُبِّنَا مَكَّةَ أَو أشدَّ).

ومن حقوق الوطن علينا : أن نتكاتف جميعًا للحفاظ عليه ، والدفاع عنه من أعدائه الذين يتربصون به ، ويريدون إحداث القلاقل والفتن وإثارة المخاوف والاضطراب فيه ، وأن نعمل على ردع كلِّ حاقدٍ أو متربصٍ تسول له نفسه أن ينال من هذا الوطن أو منشآته وممتلكاته ، أو مواطنيه ، فالدفاع عن النفس والوطن حق من حقوق الإنسان تكفله الشرائع الدينية ، والمواثيق الدولية ، ويقره الإسلام ، فلقد شُرع الجهاد في الإسلام لردّ الظلم والعدوان ، وحماية للأوطان والمقدسات والحرمات والأعراض من أن تنتهك، قال تعالى: {وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ}.

كما شرع الجهاد للمحافظة على السِّلم والأمن المجتمعي والعالمي ، فإذا تحقق السلام العادل فهو المقصد والمبتغى ، حيث يقول الحق (سبحانه وتعالى): {وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ}، ويقول عز وجل :{ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ}.

والمتأمل في سيرة النبي (صلى الله عليه وسلم) يجد أن جميع الغزوات التي شارك فيها كانت دفاعًا عن الوطن ، وعندما كان النبي (صلى الله عليه وسلم) يستشعر الخطر كان يبادر بإفساد مكر الأعداء ، وإبطال حيلهم ، وردِّ عدوانهم بخطوات استباقية ، تحفظ للوطن هيبته ومكانته ، وتحفظ للمجتمع أمنه واستقراره ، مع التزام التوجيه القرآني الواضح في قوله تعالى : {وَقَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ

وَلاَ تَعْتَدُواْ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبِّ الْمُعْتَدِينَ} .

وعلى سبيل المثال لا الحصر ، غزوة بني لحيان ، وسببها أن بني لحيان غدروا بعشرة من الصحابة بالرَّجيع ، وتسببوا في استشهادهم ، فخرج إليهم النبي (صلى الله عليه وسلم) .

وفي غزوة الغابة كان جماعة من أعراب نجد من بني فزارة قد أغاروا على إبل للنبي (صلى الله عليه وسلم) وأصحابه ، وقتلوا حارسها واحتملوا امرأته مع الإبل وفروا نحو نجد ، فكان لا بد من ردعهم وتأديبهم.

وفي غزوة دومة الجندل كانت قبائل المشركين بدومة الجندل تعد للإغارة على قوافل المسلمين بالمدينة ثم الإغارة عليها ، فبادرهم النبي (صلى الله عليه وسلم) للقضاء علي شرهم وبغيهم.

وفي غزوة بني المصطلق كانت قبائلهم تعد للإغارة على المدينة فخرج النبي (صلى الله عليه وسلم) إليهم ردًا لبغيهم وعدوانهم أيضًا.

وفي خيبر كان أهل خيبر هم الذين حزبوا الأحزاب ضد المسلمين، وحرضوا بني قريظة على الغدر والخيانة، ثم أخذوا في الاتصال بالمنافقين وبقبائل غطفان وأعراب البادية لتأليبهم على المسلمين، وكانوا هم أنفسهم يستعدون للقتال، فكان لا بد من مواجهتهم وكف شرهم.

أما غزوة مؤته فكانت ثأرًا لقتل الصحابي الجليل الحارث بن عمير الأزدي (رضي الله عنه) رسول النبي (صلى الله عليه وسلم) الذي بعثه بكتابه إلى عظيم بُصْرَى فعرض له شُرَحْبِيل بن عمرو الغساني وكان عاملاً على البلقاء من أرض الشام من قِبل قيصر فأوثقه رباطًا ، ثم قدمه فضرب عنقه ، وكان قتل السفراء والرسل – ولا يزال – من

أشنع الجرائم وأبشعها ، يساوي بل يزيد على إعلان حالة الحرب ، فاشتد ذلك على النبي (صلى الله عليه وسلم) فجهز جيشًا ووجهه إليهم.

وفي غزوة حنين كانت قبائل هوازن وثقيف هي البادئة بالعداء، وأعدت العدة للانقضاض على المسلمين، وقد سار مالك بن عوف النّصري على رأس جيش حتى وصل إلى القرب من مكة ، فكان لابد من مواجهتهم ورد بغيهم وعدوانهم.

وفي فتح مكة كانت قريش هي التي نقضت عهدها مع سيدنا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وساعدت حلفاءها من بني بكر على قتل خزاعة حلفاء رسول الله (صلى الله عليه وسلم) حيث بيتوهم وقتلوهم غدرًا عند ماء بالقرب من مكة يُقَالُ لَهُ الْوَتِيرُ ، فجاء عمرو بن سالم الخزاعي (رضي الله عنه) إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بالمدينة مستغيثًا ، فقال (صلى الله عليه وسلم) : (نُصِرْتَ يَا عَمْرُو بْنَ سَالِم) فما برح حتى مرت سحابة في السماء فقال (صلى الله عليه وسلم) : (إن هذه السحابة لتستهل بنصر بني كعب) ، وكان فتح مكة .

إن الدفاع عن النفس والوطن حق من حقوق الإنسان كفلته الشرائع السماوية، والمواثيق الدولية، وحثَّ عليه الإسلام ، وقد بشر نبينا (صلى الله عليه وسلم) حراس الوطن بأن النار لن تمس أجسادهم ، فقال: (عَيْنَانِ لَا تَمَسُّهُمَا النَّارُ ، عَيْنٌ بَكَتْ فِي جَوْفِ اللَّيْلِ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ ، وَعَيْنٌ بَاتَتْ تَحْرُسُ فِي سَبِيلِ اللهِ).

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم

* * *

الحمد لله رب العالمين، وصلاةً وسلامًا على خاتم أنبيائه ورسله سيدنا محمد (صلى الله عليه وسلم)، وعلى آله وصحبه أجمعين.

إخوة الإسلام:

إذا كانت حماية الدولة والوطن مطلبًا عامًّا ، فإن حماية دور العبادة والحفاظ على قداستها واجب شرعي ووطني ، فدور العبادة في الإسلام لها منزلة رفيعة، ومكانة عظيمة، وأهمية بالغة ؛ لذا كان أول عمل للنبي (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) بعد وصوله إلى المدينة المنورة هو بناء المسجد ، فالمسجد هو المركز الأول الذي انطلقت منه الدعوة الإسلامية لتعم أرجاء المعمورة ، وهو مركز تصحيح المفاهيم الخاطئة وبيان صحيح الدين ، يقول نبينا (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : (الْمَسْجِدُ بَيْتُ كُلِّ تَقِيٍّ وَتَكَفَّلَ اللَّهُ لِمَنْ كَانَ الْمَسْجِدُ بَيْتَهُ بِالرَّوْحِ وَالرَّحْمَةِ، وَالْجَوَازِ عَلَى الصِّرَاطِ إِلَى رِضْوَانِ اللَّهِ إِلَى الْجَنَّةِ).

والمسجد هو بيت الله (عز وجل) له حرمته وقدسيته، فهو أحب البقاع إلى الله (سبحانه)، كيف لا ؟ وهو مهبط لنزول الرحمة والسكينة ، قال (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (... وَمَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللهِ، يَتْلُونَ كِتَابَ اللهِ ، وَيَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ، إِلَّا نَزَلَتْ عَلَيْهِمِ السَّكِينَةُ، وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ وَحَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ، وَذَكَرَهُمُ اللهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ)، ولقد أضافه الله تعالى إلى نفسه إضافة تشريف وتعظيم وتكريم ، فقال جل شأنه:{وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لله فَلاَ تَدْعُوْا مَعَ اللهِ أَحَدًا}، وتوعد من سعى في خرابه أو حال بين الناس وبين أداء العبادة فيه بالعذاب الشديد ، فقال تعالى :{وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ}، وقال تعالى في شأن المسجد الحرام : {وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ}.

إن علاقة الإنسان بدور العبادة على مرِّ التاريخ علاقة تعظيم وتوقير وإجلال، وعلاقة عبادة وخشوع، ويظهر ذلك التوقير في مراعاته قدسيتها ورعاية حرمتها وحمايتها.

وكما حمى الإسلام المساجد فإنه حمى الكنائس أيضًا ، وجعل حماية الكنائس واجبة علينا كحماية المساجد سواءً بسواء ، فحماية دور العبادة من مقاصد العمران الإسلامي .

وإذا نظرنا إلى التطبيق العملي في الإسلام لحماية دور العبادة فنجد في عهده (صلى الله عليه وسلم) لأهل نجران الأنموذج الأمثل، فقد حمى كنائسهم وحذر من هدمها ، فقال: (..على أن لا تُهْدَمَ لهم بِيعَةٌ ، ولا يُخْرَج لهم قَسٌ، ولا يُفتَنوا عن دينهم ما لم يُحدِثوا حَدَثاً أو يأكلوا الربا) .

ويقول الإمام ابن حزم (رحمه الله): " إن من كان بيننا من غير المسلمين وجاء من يقصدونهم بسوء وجب علينا أن نخرج لحمايتهم ، وأن نموت دون ذلك لا أن نستحل دماءهم أو أموالهم أو أعراضهم ".

ولقد ضرب لنا الخليفة الراشد عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) أروع الأمثلة في ذلك بامتناعه من أن ينزع من نصارى بيت المقدس كنائسهم وأن يحافظ لهم عليها ويوثق ذلك لهم فيما أصبح يشتهر باسم العهدة العمرية ، وعلى ذلك جرى عمل المسلمين عبر تاريخهم المشرف وحضارتهم النقية وأخلاقهم النبيلة السمحة، منذ العصور الأولى ، فمن مات منا دفاعًا عن الكنيسة كمن مات دفاعًا عن المسجد، فالمسلم الوطني يحمي الكنيسة كما يحمي المسجد ، والمسيحي الوطني يحمي

المسجد كما يحمي الكنيسة في دولة المواطنة المتكافئة ؛ لأننا جميعا شركاء في الوطن والمصير .

ونؤكد أن ما حدث يوم الجمعة الماضي من استباحة لمسجد الروضة بسيناء ، واستحلال قتل الآمنين المتعبدين ، لحدث جلل تمقته جميع الأديان والشرائع ، وتجرمه كل القوانين ، وترفضه الإنسانية ، فمن قاموا بهذا العمل الإرهابي الغاشم هم مجموعة من الخونة والعملاء المأجورين الذين لا يرقبون في الخلق إلاَّ ولا ذمَّة ، ولا يفرقون في استهدافهم بين مسلم وغير مسلم ، ولا بين مسجد وكنيسة ، مما يتطلب الوقوف صفًّا واحدًا للقضاء عليهم وتخليص الإنسانية كلها من شرهم وفسادهم وإفسادهم، واجتثاث شجرتهم الخبيثة من بلادنا وتطهير الأرض كلها من دنسهم وشرهم.

نسأل الله عز وجل أن يرحم شهداءنا الأبرار
وأن يعجل بشفاء الجرحى والمصابين منهم .